أنثروبولوجيا تجليد المخطـــوط القرآني في المغرب العربـــــي

د.عبد الرؤوف غنية
أستاذ متعاقد ــ جامعة الزيتونة- تونس
abdallahsabbagh11@gmail.com
تاريخ الارسال 2025/5/5م تاريخ القبول 2025/10/2م

Anthropology of Quranic Manuscript Binding in the Arab Maghreb

Dr. Abdelraouf Ghania
Zaytouna University, Tunisia

Abstract
This research explores the art of Qur'anic manuscript binding in the Islamic Maghreb (Morocco, Algeria, and Tunisia), focusing on the artistic and technical characteristics that distinguish this tradition. The study demonstrates that Qur'anic binding was not merely a method of protecting the sacred text, but a spiritual and aesthetic practice that reflects both reverence for the Qur'an and the refined artistic tastes of the region. The research is based on a close artistic and technical analysis of selected bound Qur'anic manuscripts preserved in national libraries and private collections. It employs a comparative and descriptive methodology, examining decorative techniques, materials used (leather, gold leaf, pigments), and the influence of local traditions and external cultural exchanges. Fadings reveal that Qur'anic bindings in the Maghreb are characterized by a unique visual balance, incorporating geometric, vegetal, and calligraphic motifs, as well as a sophisticated use of color and gilding. These elements reflect a deep fusion of craftsmanship and spirituality. Furthermore, the study identifies regional artistic schools with distinct styles, shaped by Andalusian, Ottoman, and broader Islamic influences. The dissertation concludes by emphasizing the cultural and historical value of this heritage, and recommends efforts toward its documentation, preservation, and revival, highlighting its significance as a key element of Islamic visual identity.
Keywords: Anthropology; Quranic Manuscript; binding; the Arab Maghreb.

حقوق النشر © للمؤلف/للمؤلفين 2025. ينشر هذا البحث بموجب رخصة المشاع الإبداعي Creative Commons (CC BY-NC 4.0)

الملخـــــص:

تتناول هذه الدراسة الفنية والبحثية موضوع تجليد المخطوط القرآني في بلاد المغرب الإسلامي مركّزة على الخصائص الجمالية والتقنية التي تميّز بها هذا الفن في أقاليم المغرب، الجزائر، وتونس وتُظهر الدراسة كيف أن فن التجليد لم يكن مجرد وسيلة لحفظ المصحف بل ممارسة بصرية روحية متكاملة تعكس البُعد القدسي للنص القرآني وتعبّر عن ذائقة فنية غنية بالرموز والدلالات واعتمد البحث على تحليل نماذج حقيقية من المصاحف المجَلَّدة المحفوظة في المكتبات الوطنية والمجموعات الخاصة مع الاستناد إلى المنهج الوصفي التحليلي والمقارنة الجغرافية والثقافية وذلك للكشف عن التقنيات الزخرفية والمواد المستخدمة ومدى تأثير التقاليد المحلية والعوامل الخارجية في صياغة هذا الفن وقد خلصت الدراسة إلى أن تجليد المصحف في بلاد المغرب الإسلامي يتميز بتوازن فريد بين الزخارف الهندسية والنباتية والخطية وباستخدام مميز للألوان والذهب مما يعكس تطورًا فنيًا قائمًا على التفاعل بين الحِرفة والتقديس كما أظهرت النتائج وجود مدارس فنية محلية ذات طابع خاص مع تأثيرات أندلسية وعثمانية واضحة ويوصي المقال بضرورة توثيق هذا التراث البصـــري والعمل على إحيائه وتدريسه باعتباره جزءًا لا يتجزأ من الهوية الثقافية والفنية الإسلامية.

الكلمات المفتاحية:

أنثروبولوجي؛ تجليد؛ المخطـــوط القرآني؛ المغرب العربـــــي.

المقدمـــــــــة:

يُعدّ فنّ تجليد المخطوطات القرآنيـــــة واحدًا من أبرز الفنون التطبيقية التي أسهمت في إثراء التراث الإسلامي لما يحمله من دلالات دينية وجمالية وثقافية عميقة فلم يكن تجليد المصحف الشريف مجرّد عمل حرفي يُقصد به حفظ النص القرآني من التلف بل كان ولا يزال ممارسة فنية تنطوي على درجة عالية من القداسة والاحترام بوصفها تعاملًا مباشرًا مع كلام الله عز وجل الأمر الذي منح هذا الفنّ منزلة خاصة في الثقافة الإسلامية على مر العصور.

وفي سياق الحضارة الإسلامية كان لتجليد المصاحف وظيفة مركبة تجمع بين البعد العملي والبعد التعبيري حيث تنعكس في غلاف المصحف المصنوع من الجلد والورق أو الحرير والمزخرف بالنقوش النباتية والهندسية والخطية الرؤية الإسلامية

للعالم القائمة على التوازن والتجريد والوحدة. ويُعدّ المغرب الإسلامي بما يشمله من مناطق المغرب والجزائر وتونس وليبيا أحد أبرز الأقاليم التي احتضنت هذا الفنّ وطوّرته عبر تاريخه الطويل متأثرًا بالمعطيات الجغرافية والثقافية والدينية ومتفاعلاً في الوقت ذاته مع التيارات الفنية الوافدة من المشرق والأندلس والعالم العثماني.

كما يهدف هدا المقال إلى تتبّع تطوّر هذا الفن في بيئاته المحلية من خلال دراسة حالات تطبيقية من المخطوطات المجَلَّدة المحفوظة في مكتبات المغرب والجزائر وتونس مع تقديم مقارنة بين النماذج المختلفة وتحليل السياقات التاريخية والثقافية التي أثّرت في تشكّله من منظور بصري وتقني وتستند في ذلك إلى منهج تحليلي يجمع بين الدراسة الفنية (الأسلوب، التصميم، الخامة) والمقارنة الثقافية والاستناد إلى المصادر الأولية (مخطوطات أصلية وثائق أرشيفية) والثانوية (دراسات تاريخية وفنية معاصرة.

وتكمن أهمية هذا البحث في كونه يسلط الضوء على جانب مهمّ من التراث الإسلامي المادي ظلّ إلى حدّ كبير بعيدًا عن الدراسة الأكاديمية المركزة رغم ما يتمتع به من قيمة فنية وروحية وحضارية كما يسعى إلى دعم جهود حفظ وصون المخطوطات الإسلامية من خلال التوثيق والتحليل العلمي وإبراز الإمكانات المتاحة لتوظيف هذا التراث في الحاضر سواء في التعليم والتصميم والصناعات الثقافية

كيف يمكن الحفاظ على التراث الحرفي لفن تجليد المصاحف في المغرب العربي في ظل التغيرات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية المعاصرة؟ وما هو دور الحرفيين في نقل هذا الفن وضمان استمراريته؟

1 - الخصائص الفنية لتجليد المصاحف في بلاد المغرب الإسلامي:

1.1- مدخل إلى فن تجليد المخطوطات القرآنية:

1.1.1 - تعريف تجليد المخطوطات وأهميته:

يُعرّف تجليد المخطوطات بأنه العملية الفنية والحرفية التي تهدف إلى حماية وتجهيز المخطوطات بالغطاء المناسب الذي يحفظها من التلف والتآكل بالإضافة إلى إعطائها بعدًا جماليًا يعكس مكانة المخطوط وقيمته الثقافية والدينية تجليد المخطوطات القرآنية يتجاوز كونه مجرد عمل تقني فهو فن قائم بذاته يجسد احترامًا عميقًا للنص المقدس حيث يكرم النص القرآني ويضفي عليه هالة من الجمال والقداسة يأتي التجليد في المصاحف الإسلامية كجزء لا يتجزأ من منظومة الحفظ الثقافي والتراثي فهو يضمن بقاء المخطوطات سليمة عبر القرون كما يعكس الذوق الفني والتقني للحرفيين

الذين عملوا على هذه المصاحف إضافة لذلك يساهم التجليد في تعزيز تجربة القارئ والمستخدم إذ يجمع بين الوظيفة العملية والتزيين الفني مما يجعل المصحف ليس فقط كتابًا للقراءة وإنما قطعة فنية متكاملة تستدعي التقدير والتأمل بل هو امتداد للحفاظ على قدسية النص وتمكين استمراريته عبر الزمن(1) ؛ إذ يمثل جسراً بين الفن الإسلامي والحفاظ على التراث الثقافي والديني. تلعب عملية التجليد دورًا محوريًا في إعطاء المصحف هويته البصرية الخاصة كما تساهم في إبراز جمالية المخطوطة وتعميق ارتباط المستخدمين بها من خلال دمج الزخارف والتقنيات التي تعكس روحانيته وأصالته.

2.1.1 - تاريخ فـــن التجليد في الحضارة الإسلامية:

يُعتبر تاريخ تجليد المصاحف في المغرب العربي إرثًا حضاريًا عريقًا يمتد جذوره إلى العصور الوسطى حيث شهد هذا الفن تطورًا متدرجًا تزامنًا مع ازدهار الحضارة الإسلامية في المنطقة وانتشارها عبر الممالك المتعاقبة وشكل المغرب العربي ملتقىً ثقافيًا هامًا تداخلت فيه تأثيرات متعددة بدءًا من الفن الأندلسي الرفيع الذي تميز بالدقة والتفصيل مرورًا بالعناصر الأمازيغية ذات الطابع الهندسي والتقليدي وانتهاءً بالخط العربي الذي كان محورياً في تشكيل الهوية البصرية للمصحف (2)

تطورت تقنيات التجليد في هذا السياق ضمن بيئة اجتماعية وسياسية متغيرة حيث كانت الحرفية تستجيب للظروف المحلية وتتكيف مع المتطلبات الروحية والجمالية مع الحفاظ على الروح الدينية للنص المقدس وكانت ورش الحرفيين المحلية التي غالبًا ما توارثت أسرار الحرفة عبر أجيال من خلال التعلم بالممارسة والتقاليد الشفوية المحرك الأساسي لهذا التطور الفني ؛ إذ ابتكروا طرقًا متباينة في استخدام الجلد الطبيعي الذي كان يُختار بعناية ويُزخرف بأنماط نباتية وهندسية متقنة تعبر عن الهوية الثقافية للمجتمع كما تميزت المصاحف المجلدة في المغرب العربي بتطبيق تقنيات التذهيب الرائعة التي تضفي على النص قدسية ورونقًا بصريًا مع تركيز خاص على تزيين الأطراف والإطارات التي تحيط بالنص القرآني ما يعكس تفاعلاً غنيًا بين الجمال الفني والوظيفة الروحية وهذا التاريخ الحافل يكشف كيف نجح فن تجليد المصاحف في المغرب العربي في مزج الحرف التقليدية مع القيم الدينية والثقافية ليصبح تعبيرًا فنيًا متميزًا يحمل بصمة فريدة تعكس عمق الهوية المغربية(3) العربية

الإسلامية ما يجعله مجالًا حيويًا للدراسة والتوثيق للحفاظ على هذا التراث الثمين وتعزيزه في ظل التحديات المعاصرة.

3.1.1 - الخصائص العامة لتجليد المخطوطات القرآنيـــــة:

تتمــيز عملية تجليد المخطوطات القرآنية بعدة خصائص فنية وتقنية تجعلها مختلفة عن تجليد الكتب الأخرى. من أهم هذه الخصائص هو احترام القدسية المرتبطة بالنص مما يفرض على التجليد أن يكون دقيقًا ومتميزًا يعكس روح النص الكريم عادةً ما تستخدم مواد عالية الجودة كالجلود الفاخرة والورق المحسن والأصباغ الطبيعية مع اعتماد تقنيات تذهيب وزخرفة متقنة(4) تعبر عن القيم الجمالية والدينية يتسم التجليد الإسلامي بدمجه بين الزخارف الهندسية والنباتية مع الكتابات الخطية ما يمنح الغلاف توازنًا بصريًا وروحيًا كما يتم الاعتناء بتوزيع الزخارف بحيث لا تشتت القارئ عن النص بل تعمل على توجيه النظر وتعزيز الانسجام بين الغلاف والمحتوى. بالإضافة إلى ذلك يراعى في التصميم الفني للتجليد سهولة الاستخدام والمتانة حيث يجب أن يوفر الغلاف حماية فعالة للمخطوط وخاصة مع مرور الزمن مما يجعله فنًا تقنيًا وفنيًا متكاملًا في آنٍ معًا.

2.1 - الأساليب الزخرفية والتقنيات الفنيـــــة:

1.2.1 - زخارف التجليد (نباتية، هندسية، كتابية):

تُعد الزخارف من الركائز الأساسية التي تُميّز تجليد المصاحف في بلاد المغرب الإسلامي حيث تجمع بين أصالة الفن الإسلامي وخصوصيات البيئة الثقافية المحلية تتنوع الزخارف بين النباتية والهندسية والكتابية وتشكل لغة بصرية تعبّر عن عمق الروحانية والجماليات الإسلامية الزخارف النباتية غالبًا ما تتضمن أنماطًا مستوحاة من الطبيعة مثل الأوراق المتشابكة والأزهار وأغصان النباتات المجردة وتُستخدم بأسلوب يُراعى فيه التنسيق والتناظر الدقيق دون تصوير مباشر للكائنات الحية موافقةً لمبادئ الفن الإسلامي. أما الزخارف الهندسية فهي تتسم بالتعقيد والدقة وتعتمد على تشكيل أنماط متكررة باستخدام أشكال هندسية متعددة مثل المضلعات والدوائر والنجوم التي تعكس فهمًا رياضيًا عميقًا ومتقنًا في التكوين الفني أما الزخارف الكتابية فتشغل مكانة خاصة حيث تُستخدم الآيات القرآنية أو العبارات الدينية بأشكال زخرفية تعزز من القدسية والتأمل مع اعتماد خطوط عربية كالثلث والنسخ التي تُدمج كعنصر زخرفي فعال يعكس دقة الصنعة وروح النص.

2.2.1 - المواد المستخدمة في التجليد (جلود، ورق، ألوان، معاجين الذهب) :

تلعب المواد المستخدمة في تجليد المصاحف دورًا حاسمًا في تحديد جودة ومتانة العمل الفني بالإضافة إلى بروز جمالي يعكس القيمة الروحية للمخطوط يُستخدم الجلد الطبيعي المعالج بدقة عالية كغطاء رئيسي حيث يُختار بعناية من أنواع معينة لضمان صلابته ومرونته مع مراعاة تصنيعه بطريقة تحافظ على نعومته وقابليته للتزيين أما الورق فهو العنصر الأساسي الداخلي للمصحف وغالبًا ما يكون مصنوعًا من ألياف طبيعية تمت معالجتها يدويًا ليتمتع بسطح ناعم يتحمل الكتابة والزخرفة تستخدم الألوان الطبيعية المستخرجة من المعادن والنباتات بشكل متقن لإضفاء الحيوية على الزخارف حيث تُراعى دقة تدرجاتها وثباتها على مر الزمن وتعتبر معاجين الذهب من أبرز العناصر الفاخرة المستخدمة إذ تُطبق بعناية فائقة عبر مراحل متعددة لضمان لمعان دائم وبريق يضفي على التجليد رونقًا ملكيًا يعكس قدسية النص.

3.2.1 - تقنيات التجليد (الطباعة اليدوية، النقش، التذهيب) :

تتميز تقنيات تجليد المصاحف في المغرب الإسلامي بالتنوع والدقة العالية حيث يدمج الحرفيون بين تقنيات تقليدية متوارثة وتقنيات محدثة حافظت على أصالة الفن تبدأ العملية عادة بالطباعة اليدوية للأغلفة التي تشمل تشكيل القوالب الخشبية والمعدنية التي تحوي الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية وتُطبع بمهارة عالية على الجلد لتخلق نقوشًا بارزة ومتناسقة يليه النقش اليدوي الذي يُستخدم لإبراز تفاصيل الزخارف بشكل دقيق سواء عبر الحفر الخفيف والعميق مما يعطي أبعادًا وظلالًا تنعكس جماليًا على سطح الغلاف ويُعد التذهيب المرحلة الأهم والأكثر فخامة حيث تُستخدم معاجين الذهب لتغطية النقوش(5) و إطارات النصوص ويتم تطبيقها بطريقة متقنة باستخدام أدوات خاصة لضمان توزع متساوٍ ولمعان دائم مع حرص على دمجها بتناغم مع باقي الزخارف دون أن تطغى على النصوص والزخارف الأخرى مما يخلق توازنًا بصريًا وروحيًا متكاملًا(6)

3.1 - التصميم الفني وأنماط التجليد:

1.3.1 - الأنماط الزخرفية الخاصة بكل منطقة (المغرب، الجزائر، تونس) :

تتميز بلاد المغرب الإسلامي بتنوع جغرافي وثقافي انعكس بشكل واضح في أنماط التجليد الفني للمخطوطات القرآنية حيث تنفرد كل منطقة بخصائص زخرفية تعكس تاريخها وهويتها الفنية وفي المغرب تتسم التجليدات باستخدام أنماط هندسية متشابكة دقيقة تنبع من التراث الأندلسي مع تركيز واضح على التكرار والتناظر الذي يعكس

فلسفة الوحدة واللانهائية الزخارف النباتية في المغرب(7) تميل إلى التجريد مع اعتماد خطوط متعرجة وأشكال الأزهار المتكررة مميزة بغنى التفاصيل وبساطة الألوان وأما في الجزائر فيتسم التجليد بالتنوع إذ تتداخل الأنماط الهندسية مع الزخارف الخطية التي تحاكي الخط العربي مع استخدام ألوان نابضة أكثر مثل الأحمر والذهبي مع إدخال رموز إسلامية محلية تعبر عن الهوية الثقافية للأمازيغ والمجتمعات الحضرية تونس بدورها تقدم مزيجًا فنيًا فريدًا يجمع بين الزخارف الهندسية المعقدة والزخارف النباتية المتقنة مع أسلوب زخرفي يميل إلى التناظر الدقيق والرصانة كما يظهر في التجليد المحفوظة في المكتبات التونسية حيث يستخدم فنانو التجليد توازنًا مدروسًا بين الحداثة والحفاظ على التراث هذا التباين الإقليمي في الأنماط الزخرفية يعكس تفاعلات تاريخية بين المدارس الفنية المختلفة وتأثيراتها المتبادلة مما يجعل كل نسخة تجليد مصحف تعبيرًا عن هوية فنية محلية ضمن السياق الإسلامي الأوسع (8).

2.3.1 - رموز وزخارف خاصة بالمخطوط القرآني:

تحمل زخارف تجليد المصاحف في بلاد المغرب الإسلامي رموزًا ودلالات فنية ودينية عميقة تعزز من قدسية النص وتوجه النظر إلى المعاني الروحية من بين هذه الرموز يبرز استخدام الأشكال الهندسية كدلالة على الكمال الإلهي واللانهاية حيث يتم تكرار النجوم متعددة الرؤوس والمضلعات لتجسيد نظام الكون وفق التصور الإسلامي الزخارف النباتية كالأرابيسك تمثل الحياة والنمو الروحي وهي مُصممة بأسلوب يبتعد عن التجسيد الحي متبعًا المبادئ الإسلامية التي تمنع تصوير الكائنات الحية إضافة إلى ذلك تدمج تجليد خطوطًا كتابية مزخرفة غالبًا ما تحمل آيات قرآنية وأسماء الله الحسنى ما يمنح الغلاف بعدًا روحانيًا إضافيًا ويُكرّس المصحف كقطعة فنية مقدسة كما تُستخدم رموز مثل الهلال والنجمة وأحيانًا أشكال هندسية متكررة تمثل المفاهيم الفلسفية المرتبطة بالإيمان والوحدة هذه الرموز لا تقتصر على الزخرفة الجمالية فقط بل تشكل جزءًا من لغة بصرية تترجم القيم الدينية وتوحي بتجربة تأملية لكل متلقي مما يجعل كل تجليد أكثر من مجرد غلاف بل وعاء روحي حاملاً لمعاني النص.

3.3.1 - العلاقة بين التصميم الفني ووظيفة التجليد (الحماية والتزيين) :

يتجلى في تصميم تجليد المصاحف في المغرب الإسلامي توازن دقيق بين الوظيفة العملية والحماية من جهة والوظيفة الجمالية والتزيينية من جهة أخرى في البداية يُعد الغلاف الحامي للمصحف عنصرًا أساسيًا لحفظ المخطوط من عوامل الزمن والتلف مما يحتم استخدام مواد متينة كالجلود المدبوغة بعناية وتقنيات تجليد متقنة تحمي

الصفحات الداخلية من الناحية الفنية لم يكن التصميم(9) مجرد غلاف وظيفي فقط بل تحول إلى منصة لإظهار الجمال والفخامة حيث يتداخل(10) الحماية مع التزيين فكل زخرفة تُضفي قيمة رمزية وتبرز مكانة النص المقدس. استخدام الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية يعزز من تماسك الغلاف فالتكرار والتناظر يساهمان في تقوية المادة من خلال توزيع القوى بشكل متوازن. علاوة على ذلك يظهر التجليد اهتماما خاصًا بتقسيم الغلاف إلى مربعات وأشرطة زخرفية(11) تخلق هيكلًا منظمًا يسهل القبض عليه ويحميه ويجعل الغلاف قطعة فنية متكاملة تتناغم مع محتوى المصحف بالتالي يمثل التصميم الفني في التجليد مثالًا حيويًا على التكامل بين الجانب العملي والجانب الروحي مما يجعل المخطوط ليس فقط محفوظًا بحالة جيدة بل أيضًا مستحقًا للوقوف عليه والاحتفاء به كتحفة فنية.

2- السياق الاجتماعي والثقافي لحرفيي تجليد المصحف:

1.2 - الحرفيون وبيئة العمل التقليدية:

1.1.2 - البنية الاجتماعية لحرفيي التجليد (الأسرة، الورش، النقابات):

تُشكّل البنية الاجتماعية لحرفيي تجليد المصحف في المغرب العربي نظامًا معقدًا متداخلًا يتألف من العائلة الورش الحرفية والنقابات التقليدية تُعد الأسرة وحدة أساسية في نقل مهارات التجليد حيث يتم تعليم الأبناء حرفة الآباء بشكل متوارث ما يضمن استمرارية المهنة عبر الأجيال تشكل الورش الحرفية فضاءات مركزية للعمل الجماعي حيث يلتقي الحرفيون لتبادل الخبرات والتقنيات وتتميز هذه الورش بتقسيم دقيق للمهام بين التابعيين والمتدربين والحرفيين المتمرسين كما تلعب النقابات دورًا تنظيميًا وحاميًا لحقوق الحرفيين من خلال وضع قواعد مهنية واجتماعية وضمان جودة العمل مما يعزز التماسك الاجتماعي ويدعم الحفاظ على الهوية الحرفية.

2.1.2 - مكانة الحرفي في المجتمع المغربي العربي:

يحتل الحرفي الذي يمارس تجليد المصحف مكانة اجتماعية مرموقة في المجتمع المغربي العربي نظراً لما تحمله مهنته من رمزية دينية وفنية عميقة يُنظر إلى الحرفي على أنه حافظ للتراث ووسيط بين الماضي والحاضر مما يضفي عليه قدسية واحترامًا خاصًا إلى جانب ذلك فإن مساهمته في إنتاج المصاحف تجعل عمله مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالحياة الروحية للمجتمع وهو ما ينعكس في التقدير الاجتماعي والمكانة الرمزية التي يحظى بها رغم ذلك يواجه الحرفيون تحديات اقتصادية واجتماعية مع تطور

الأسواق واندثار بعض المهارات التقليدية ما يدفع بعضهم إلى البحث عن سبل للحفاظ على مهنته وتأقلمها مع العصر الحديث.

3.1..2 - آليات نقل المعرفة والتدريب الحرفي (الشفوية، التعلم بالممارسة) :

تستند عملية نقل المعرفة في حرفة تجليد المصحف إلى منظومة تقليدية تعتمد على التعليم الشفوي والتعلم بالممارسة حيث يتم توجيه المتدربين في الورش من قبل الحرفيين المتمرسين عبر الملاحظة المباشرة والممارسة المستمرة لا يُستخدم في هذه العملية نماذج مكتوبة ومنهجية رسمية(12)؛ وإنما تتركز على التجربة الشخصية ونقل الأسرار المهنية التي تشمل تقنيات اختيار المواد وكيفية النقش والتذهيب وتركيب الأغلفة بطريقة تحافظ على قدسية المخطوط كما يرافق هذا التعلم طقوس اجتماعية وشهادات ضمنية تؤكد مستوى الإتقان ويُعتبر التمرس الطويل ضرورة لاكتساب مهارات الاحتراف هذا الأسلوب في التعليم يُعزز من الروابط الاجتماعية بين الأجيال ويُرسخ انتماء الحرفي لمجتمعه المهني.

2.2 - الطقوس والممارسات الثقافية المرتبطة بتجليد المصحف:

1.2.2 - الطقوس الاجتماعية والدينية أثناء عملية التجليد:

تتجاوز عملية تجليد المصحف في المغرب العربي كونها مجرد نشاط حرفي إلى كونها حدثًا اجتماعيًا ودينيًا متكاملًا يتخلله عدد من الطقوس الرمزية(13) التي تعزز من قدسية العمل تبدأ هذه الطقوس غالبًا بتحضير الورش والصلاة طلبًا للبركة والحفظ حيث يُنظر إلى المصحف ككائن مقدّس يستوجب التعامل معه بحذر وروحانية عالية كما يرافق العملية قراءة أدعية محددة وأذكار لضمان نقاء النية وإتمام العمل على الوجه الأكمل تشمل الطقوس - أيضًا - مشاركة أفراد المجتمع في مراحل محددة من العمل مما يجعل التجليد فعلًا جماعيًا يربط الحرفيين بالمتلقين تؤكد هذه الممارسات على البعد الروحي للحرفة وتبرز العلاقة الحميمة بين الدين والفن في الثقافة المغربية.

2.2.2 – الرمـــــوز والمعاني الثقافية في زخارف التجليد:

تُعد زخارف تجليد المصحف في المغرب العربي أكثر من مجرد تزيين بصري فهي لغة رمزية متكاملة تحمل دلالات ثقافية وروحية عميقة تنبع من التراث الإسلامي والهوية المحلية المتشابكة مع تاريخ المنطقة المتنوع. تعكس هذه الزخارف نقوشًا هندسية متقنة تتميز بالتكرار والتناظر حيث ترمز الأشكال الهندسية كالنجوم والمتعددات الأضلاع إلى مفاهيم كونية كالخلود واللانهاية والوحدة وهي قيم أساسية في التصور الإسلامي للكون بالإضافة إلى ذلك تُستخدم الزخارف النباتية المستوحاة

من الطبيعة المحيطة مثل أوراق النباتات وأزهار اللوتس والسلالم الحلزونية لتعبر عن الحياة والخصوبة والتجدد الروحي ما يضيف بعدًا روحيًا حيويًا للتجليد.

الخطوط المنحنية والأشكال المتداخلة في التصاميم تعمل على خلق إحساس بالتدفق والاستمرارية وهو ما يعكس مفهوم التوازن والتناغم في الكون كما يُستخدم الخط العربي (14) ذاته كعنصر زخرفي يتجاوز وظيفته القرآنية ليصبح رمزًا جمالياً يحمل معاني دينية وروحية تعزز من حضور النص. وتبرز في هذه التصاميم أيضًا تأثيرات ثقافية متداخلة بين الحضارات الأمازيغية والعربية والأندلسية التي تعايشت على أرض المغرب العربي وخلقت نمطًا زخرفيًا فريدًا يعكس تلك التفاعلات التاريخية فمثلاً تُمزج الزخارف الهندسية الدقيقة مع الرموز الأمازيغية القديمة مما يضفي على التصاميم طابعًا محليًا خاصًا يعكس التراث والتنوع الثقافي للمنطقة وتشكل هذه الرموز والمعاني إذًا جسرًا بين الجانب الفني والروحي إذ تسهم في تعميق تجربة القارئ أو المتلقي للمصحف من خلال خلق حالة تأملية تهدف إلى الصفاء الذهني وتهيئة النفس لاستقبال المعاني المقدسة للنص بهذا الشكل لا تبقى زخارف التجليد مجرد حشو أو تزيين سطحي بل تتحول إلى عناصر أساسية في بناء الهوية الثقافية والدينية وتعزيز التواصل الروحي بين الإنسان والنص المقدس مما يبرز الدور العميق الذي تلعبه الحرفة الفنية في الحفاظ على التراث وتعزيز القيم الروحية في المجتمع المغربي العربي.(15)

3.2.2 - الاحتفالات والطقوس المرتبطة بتسليم المصحف المجلد:

تُعتبر لحظة تسليم المصحف المجلد من الورش الحرفية إلى صاحبه أو المؤسسة التي ستحتفظ به مناسبة ذات بُعد اجتماعي وروحي عميق يتجاوز مجرد إنجاز مادي حيث تتحول إلى طقس احتفالي يعكس الفخر الجماعي والامتنان تجاه هذا العمل الفني والديني المتقن تترافق هذه اللحظة مع مجموعة من الطقوس التعبيرية التي تهدف إلى إضفاء قداسة وحالة من التقدير العميق على المصحف المجلد وذلك من خلال فعاليات تشمل قراءة جماعية للقرآن الكريم بصوت خاشع وتلاوة الأدعية والأذكار التي تعزز من الروحانية المصاحبة للعمل فضلاً عن تبادل الهدايا الرمزية التي تعكس روح التعاون والتكريم بين الحرفيين والمستفيدين.

في العديد من مناطق المغرب العربي ترتبط هذه الطقوس باحتفالات ومهرجانات محلية تسلط الضوء على أهمية الحرفة كجزء لا يتجزأ من التراث الثقافي الحي للمجتمع وتعمل على تعزيز الروابط الاجتماعية بين الحرفيين وعائلاتهم وبين

الحرفيين وزبائنهم أو الجهات المانحة كما تلعب هذه المناسبات دورًا مركزيًا في نقل قيم الحرف اليدوية وتاريخها إلى الأجيال الجديدة مما يضمن استمرارية الحرفة ويعزز الاعتراف بمكانتها الثقافية والفنية. ومن خلال هذا التكامل بين الفن والدين والمجتمع تتحقق وظيفة مزدوجة للمصحف المجلد فهو ليس فقط وعاءً للنص المقدس بل أيضًا رمز حي لهوية المجتمع وثقافته ووسيلة لترسيخ قيم التعاون والاحترام المتبادل في فضاء محيط مشترك.

3- التحليل الأنثروبولوجي والفني لتقنيات التجليد:

1.3 - التقنيات التقليدية لتجليد المصحف:

1.1.3 - المواد المستخدمة في التجليد وأهميتها الرمزية:

تشكل المواد المستخدمة في تجليد المصحف في المغرب العربي أساسًا جوهريًا للحرفة تعكس القيم الثقافية والروحية العميقة التي يحملها هذا الفن يعتمد الحرفيون على جلود الحيوانات المختارة بعناية فائقة مثل جلد الماعز والغنم لما تمتاز به هذه الجلود من مرونة وقدرة على التحمل مما يضمن حماية المصحف ودوام استمراريته عبر الزمن إن هذا الاهتمام بجودة المواد(16) يعكس تقديرًا رفيعًا لاستدامة العمل الحرفي واحترامًا للنص القرآني كمصدر مقدس للمعرفة والهداية وإلى جانب الجلود تُستخدم أوراق خاصة محضّرة بطرق تقليدية تضمن ثبات الألوان ومتانة الصفحات كما تُستخلص الأصباغ الطبيعية من النباتات والمعادن ما يعزز العلاقة بين الحرفة والبيئة المحيطة ومن أبرز المواد التي تحمل أهمية رمزية كبيرة معاجين الذهب المستخدمة في التذهيب التي تضفي على الغلاف هالة من الفخامة (17) والقداسة حيث يُنظر إلى الذهب على أنه رمز للنور الإلهي والصفاء الروحي كذلك يُفسر استخدام الجلد كرمز للحماية والحفظ مما يجعل من كل مادة جزءًا من رسالة روحية متكاملة وإن هذا التداخل بين الجانب المادي والرمزي في اختيار المواد يُبرز الفن الحرفي كتجسيد حي للفلسفة الإسلامية في التوازن والتناغم حيث لا تُعَدُّ المواد مجرد أدوات بل عناصر ذات دلالات روحية تحمل رسائل عميقة تكمّل النص المقدس وتعزز من مكانته بين المتلقين فتتحول عملية التجليد إلى فعل تكاملي يجمع بين الجمال والروحانية(18) .

2.1.3 - أدوات الحرفي وأساليب العمل الميدانية:

يعتمد حرفيو تجليد المصاحف في المغرب العربي على مجموعة متقنة من الأدوات التقليدية التي تتطلب خبرة ومهارة عالية حيث يُستخدم الأدوات المعدنية الدقيقة للنقش

على الجلود بالإضافة إلى المبايض التي تُستخدم في توزيع الدهانات والأصباغ بعناية فائقة كما تلعب أدوات التذهيب اليدوي دورًا حيويًا في وضع أوراق الذهب بطريقة متقنة تبرز الفخامة والقدسية في التصميم.

تتميز أساليب العمل بطابعها الحرفي اليدوي الذي يركز على احترام أدق التفاصيل الفنية في كل مرحلة من مراحل التجليد إذ يبدأ الحرفي بتحضير الجلد عبر تقنيات محددة لإعداده ثم ينتقل إلى رسم وتصميم الإطارات والزخارف التي تميز غلاف المصحف مرورًا بمرحلة التلوين والتذهيب(19) التي تضفي على العمل جمالًا وروحانية وينتقل هذا الفن الحرفي تقليديًا عبر التعليم الشفوي والتدريب العملي داخل الورشات التقليدية حيث يتعلم الحرفيون الصغار على يد أساتذتهم ما يجعل من البيئة الميدانية ورش العمل قلب عملية التعلم والتطوير. هذا الانتقال العملي للمهارات يؤكد على أهمية الجانب التجريبي والتفاعلي في صقل مهارات الحرفي وضمان جودة المنتج النهائي بالإضافة إلى المحافظة على التراث الفني والثقافي المرتبط بتجليد المصاحف في المنطقة.

3.1.3 - الفروق التقنية بين المناطق (المغرب، الجزائر، تونس):

تُعد الفروق التقنية في فن تجليد المصاحف بين دول المغرب العربي(20) المغرب، الجزائر، وتونس – انعكاسًا حيًا للتنوع الثقافي والتاريخي والجغرافي الذي تتميز به كل منطقة حيث يتجلى هذا التنوع في اختيار المواد والأساليب الفنية التي تعكس البيئة المحلية والتقاليد الحرفية المتوارثة عبر الأجيال وفي المغرب يُستخدم نوع خاص من الجلود غالبًا ما يكون من الغنم والعجل يُعالج ويُجهز بعناية فائقة ليصبح قاعدة صلبة وقابلة للتزيين بينما تبرز مهارة التجليد المغربي في التذهيب الدقيق الذي يعتمد على تقنيات متقدمة في صهر الذهب ورسم الزخارف النباتية والهندسية التي تنسجم بشكل متقن مع الخط العربي(21) خاصة الخطوط الكلاسيكية كالثلث والنسخ وتُظهر التصاميم المغربية توازنًا بين البساطة والثراء الزخرفي حيث تسيطر أشكال هندسية متكررة تتداخل مع نقوش نباتية ترمز إلى الخصوبة والنماء مما يعكس الحس الجمالي المغربي وارتباطه بالفنون الإسلامية التقليدية وفي المقابل يتميز التجليد الجزائري بتعدد مصادر التأثير الفني وذلك نتيجة لموقع الجزائر كملتقى بين الشرق الإسلامي والأندلس ما أدى إلى تطور فن زخرفي متنوع ومعقد يتسم بتداخلات غنية في الألوان والتفاصيل الدقيقة مع ميل إلى المزج بين الأساليب المشرقية والعربية الأندلسية وتُظهر المخطوطات الجزائرية إتقانًا عاليًا في استخدام تقنيات النقش اليدوي

والطلاء(22) الذهبي مع إبداعات زخرفية تأخذ شكل تكرارات هندسية ونباتية دقيقة تعبر عن غنى التراث الثقافي الجزائري وتفاعله مع التيارات الفنية المختلفة.

أما في تونس فتبرز خصوصية فنية واضحة من خلال مزيج فريد يجمع بين الأصالة والابتكار حيث يعتمد حرفيو التجليد على جلود مميزة ذات جودة عالية ويستخدمون تقنيات تلوين وتذهيب تمزج بين الطرق التقليدية والأساليب المستحدثة التي تسمح بإبراز ألوان غنية وحيوية كاللون الأزرق النيلي والأحمر القاني مما يمنح المصاحف التونسية طابعًا بصريًا متفردًا كما يتميز التجليد التونسي باستخدام زخارف متقنة ذات رموز محلية تحمل دلالات روحية وثقافية خاصة تعكس تاريخ البلاد وتقاليدها الحرفية العريقة بالإضافة إلى ذلك تتسم التجليات التقنية في تونس بمرونة تسمح للحرفيين بالتكيف مع التطورات الحديثة مع الحفاظ على الطابع التراثي للعمل الفني ما يدل على حيوية واستمرارية هذه الحرفة في إطار السياق الثقافي المحلي وبالتالي تكشف هذه الفروق التقنية المتباينة بين المغرب والجزائر وتونس(23) عن طبيعة الفن الحرفي المرتبط بتجليد المصاحف الذي لا يقتصر على كونه مجرد عمل مهني بل هو تجسيد لتاريخ وثقافة وهوية كل منطقة يعكس التأثيرات البيئية والاجتماعية ويتفاعل مع متطلبات الحفظ الفني والنقل الثقافي. كما تؤكد هذه التنوعات على أهمية دراسة كل نموذج ضمن سياقه المحلي لفهم أعمق لفنون تجليد المصاحف في المغرب العربي وكيفية مساهمتها في إثراء التراث الإسلامي والحفاظ عليه عبر العصور.

2.3 التفاعل بين التقنية والتقاليد الثقافية:

1.2.3 - تأثير العوامل الثقافية على اختيار التقنيات والأساليب:

تتأثر تقنيات وأساليب تجليد المصاحف في المغرب العربي تأثرًا عميقًا بالعوامل الثقافية المحلية التي تُشكّل الإطار القيمي والفني للحرفة فالاختيار الدقيق للمواد والأساليب الفنية لا يقتصر على معيار الجودة فقط بل يعكس أيضًا ارتباط الحرفي بالموروث الثقافي والروحي لمجتمعه ترتبط هذه الاختيارات بالعادات الاجتماعية المعتقدات الدينية والعلاقات المجتمعية التي تحكم نقل المعرفة بين الأجيال. على سبيل المثال يُفضّل استخدام بعض الألوان والرموز الزخرفية التي تحمل دلالات روحية خاصة في مجتمعات معينة كما تتباين طرق العمل وتقسيم المهام داخل الورش تبعًا للتراتبية الاجتماعية والنظام العائلي وهكذا يتجلى الترابط الوثيق بين الثقافة والتقنية

في كل مرحلة من مراحل التجليد حيث لا تكون العملية مجرد إنتاج مادي بل فعل ثقافي متكامل (24)

2.2.3 - التغيرات والتجديدات في تقنيات التجليد عبر الزمن:

على الرغم من جذور الحرفة التقليدية المتينة شهد فن تجليد المصاحف في المغرب العربي تطورات تقنية متدرجة مستجابة للتغيرات الاجتماعية والثقافية والتكنولوجية فقد أدخل الحرفيون تدريجيًا أدوات وأساليب حديثة مثل تحسين جودة الجلود استحداث أصباغ جديدة واستخدام آلات دقيقة لتسهيل بعض مراحل النقش والتذهيب مع المحافظة على جوهر الحرفة اليدوية(25) بالإضافة إلى ذلك برزت تجديدات في أنماط الزخرفة(26) وتصاميم التجليد مستوحاة من التفاعل مع ثقافات مجاورة وأحداث تاريخية مما أضفى على الفن حيوية واستمرارية دون فقدان الهوية التقليدية. يعكس هذا المبحث كيف أن التغير التقني لا يعني الانفصال عن الجذور بل هو سعي حثيث للحفاظ على التراث وتكييفه مع متطلبات العصر.

3.2.3 - دور الحرفي في حفظ الهوية الثقافية من خلال التجليد

يلعب الحرفي دورًا محوريًا في نقل وحفظ الهوية الثقافية من خلال ممارسة وتجديد تقنيات تجليد المصاحف. فهو ليس مجرد منفذ للعمل بل حامل لقيم وتقاليد متجذرة يعتني بتفاصيل الحرفة ويحولها إلى سجل حي للتاريخ الفني والثقافي من خلال ورش العمل تعليم الأجيال الجديدة والالتزام بالممارسات التقليدية ويعمل الحرفي على ضمان استمرارية هذا الفن كرمز للهوية الجماعية كما يُظهر هذا الدور الحيّ كيف يمكن للفن أن يكون جسرًا بين الماضي والحاضر معززًا الفهم العميق لمكانة المصحف في المجتمع والروحانية التي تحيط به. بهذا تصبح عملية التجليد فعلًا ثقافيًا ينطوي على مسؤولية اجتماعية وفنية تعكس وعي الحرفي بأهميته كحافظ لتراثه.

4 - الدراسة التطبيقية – نماذج مختارة من تجليد المصاحف في المغرب العربي:

4 . 1 - دراسة حالة: تجليد مصاحف من المغرب:

1.1.4 - تحليل نماذج مخطوطات مغربية قديمة:

تشكل مخطوطات المصاحف المغربية القديمة مصدرًا غنيًا لفهم تطور فن التجليد في المغرب العربي حيث تعكس هذه النماذج الأبعاد الفنية والتقنية التي تميزت بها المدرسة المغربية يبرز في هذه المخطوطات تنوع في أنماط التجليد بين البساطة والثراء الزخرفي مما يدل على وجود مدارس فنية متعددة وتفاوت في الموارد المتاحة للفنانين من الناحية الفنية تركز الدراسة على تحليل التكوينات الزخرفية التي تجمع بين

النقوش الهندسية المعقدة والزخارف النباتية التي تتسم بالتجريد والدقة كما يلاحظ استخدام إطار مكرر حول الغلاف يعزز من هيكلية التصميم تفصيل الحواف والظهر يظهر خبرة متقدمة في التعامل مع الجلد والمواد الأخرى حيث تتنوع بين التجليد الناعم الذي يحتفظ بمرونة المخطوط والتجليد القاسي الذي يضفي مزيدًا من الحماية كما تُظهر المخطوطات اهتمامًا خاصًا بالعناصر الكتابية المزخرفة(27) التي غالبًا ما تتضمن عبارات التقديس والتبرك ما يرفع من القدسية البصرية للمصحف ومن الجدير بالذكر أن الدراسة تُسلط الضوء على التغيرات الزمنية التي طرأت على أنماط التجليد المغربية مما يعكس تحولات اجتماعية وثقافية وفنية شهدها المغرب عبر القرون.

2.1.4 - تقنيات وأدوات التجليد المستخدمة

تعكس تقنيات التجليد في المغرب العربي تفاعلًا بين المعرفة التقليدية والابتكارات المحلية حيث اعتمد الحرفيون على أدوات ومواد خاصة ساهمت في تحقيق جودة عالية للمخطوطات وحمايتها تشمل التقنيات الأساسية المستخدمة في التجليد تجهيز الجلد الذي يمر بمراحل دباغة دقيقة لضمان المتانة والمرونة مع استخدام أنواع مختارة من الجلود كالجلود النباتية والجلود الحيوانية(28) كما تعتمد عملية التجليد على أدوات خاصة مثل الإبر والخيوط المصنوعة من الألياف الطبيعية التي توفر ثباتًا عاليًا دون التسبب في تلف الصفحات من جانب آخر استخدمت تقنيات النقش اليدوي لتشكيل الزخارف سواء على الجلد أو على الأجزاء المعدنية المستخدمة في التزيين مع اعتماد تقنيات التذهيب باستخدام معاجين ذهبية تضاف بشكل متقن لإضفاء لمسة فاخرة على الأغلفة تُظهر الدراسة كذلك استخدام مواد طبيعية محلية في الأصباغ التي تُستخدم لتلوين الزخارف مما يؤكد ارتباط فن التجليد بالبيئة المحلية وكذلك يشير البحث إلى وجود أدوات خاصة لإحداث التموجات والنتوءات التي تميز بعض الأغلفة المغربية وهي تقنية تضفي بعدًا نصيًا ثلاثي الأبعاد على التصميم وهذه التقنيات المتميزة تعكس حرفية عالية وتقاليد متوارثة وتدل على اهتمام كبير بجودة الحفظ والمظهر الجمالي للمخطوط القرآني.

2.4 - دراسة حالة: تجليد مصاحف من الجزائر:

1.2.4- الخصائص الفنية والتقنية لتجليد المخطوطات الجزائرية:

تتميز مخطوطات المصاحف الجزائرية بمجموعة من الخصائص الفنية والتقنية التي تعكس البيئة الثقافية والتاريخية للمنطقة حيث ينفرد التجليد الجزائري بطابع يجمع بين الأصالة المحلية والتأثيرات المتعددة التي أثرت على فنون الحرف في الجزائر ومن

الناحية الفنية يلاحظ استخدام زخارف نباتية هندسية مركبة تعتمد على التكرار والتناظر مع تركيز واضح على الإطارات والزوايا التي تحيط بصفحات المخطوط كما تتسم الأغلفة بالتنوع في المواد حيث استخدم الحرفيون الجلود المحلية المعالجة بعناية مع تطبيق تقنيات خاصة للدباغة تناسب المناخ الجزائري مما منح الأغلفة متانة ومرونة مناسبة لحماية المخطوط وأما من الجانب التقني فقد استُخدمت أدوات يدوية تقليدية لإتمام عملية التجليد شملت الإبر المصنوعة من المعادن والخيوط الطبيعية المقاومة إضافة إلى تقنيات التذهيب اليدوي التي تضفي مزيدًا من الجمال والرونق على الأغلفة وتميز التجليد الجزائري أيضًا بتوظيف أنماط نقش دقيقة على الجلد تتراوح بين الزخارف المجردة والكتابات التزيينية التي تعزز الطابع الديني للمصحف وقد شهدت هذه المخطوطات اهتمامًا خاصًا بحماية الحواف والظهر من خلال تطبيق تقنيات تقوية مبتكرة أدت إلى حفظ المخطوط عبر أجيال دون تلف هذا المزيج من الحرفية العالية والدقة الفنية يُبرز مكانة التجليد كفن متكامل يحافظ على قيمة المخطوط من الناحيتين الجمالية والوظيفية(29)

2.2.4- التداخلات الثقافية والتأثيرات الخارجية في تجليد المخطوطات

شهد فن تجليد المخطوطات في الجزائر تداخلاً ثقافيًا غنيًا ناتجًا عن موقع الجزائر الجغرافي وتاريخها كملتقى حضارات مختلفة مما أدى إلى نشوء أساليب فنية متميزة تتداخل فيها التأثيرات المحلية مع المستجدة من الخارج. إذ تأثر التجليد الجزائري(30) بفنون الأندلسيين الذين هاجروا إلى المنطقة حيث نُقلت معهم تقنيات زخرفية معقدة ترتكز على الخط العربي والزخارف الهندسية المعقدة كما لعبت الفترات العثمانية دورًا بارزًا في إدخال عناصر زخرفية مميزة خاصة في نمط التذهيب واستخدام الألوان الزاهية كالذهب والأزرق النيلي إضافة إلى تبني أنماط الخط الثلث والديواني في زخرفة الأغلفة وبالإضافة إلى ذلك أدت الاحتكاكات مع الثقافات الأوروبية خصوصًا الفرنسية خلال الحقبة الاستعمارية إلى تبني بعض الأساليب الجديدة في استخدام المواد وتقنيات التجليد كالطباعة والتشطيب المعدني مما أثر على تطور شكل الغلاف ووظائفه ويظهر هذا التداخل بوضوح في تنوع التصاميم من حيث التفاصيل والمواد حيث تجد في بعض المخطوطات مزيجًا بين الزخارف التقليدية والزخارف الغربية التي غالبًا ما تم تكييفها لتتماشى مع الذوق الإسلامي وهذا التداخل بين الثقافات والتقاليد الفنية لم يكن مجرد نقل شكلي بل تجسد في خلق لغة زخرفية جديدة ومتكاملة تعكس خصوصية المشهد الثقافي الجزائري وتبرز قدرة الحرفيين المحليين على

الابتكار والدمج بين الأصالة والمعاصرة في آنٍ واحد مما يضفي على تجليد المخطوطات قيمة فنية وتاريخية عالية.(31)

3.4 - دراسة حالة: تجليد مصاحف من تونس:

1.3.4- الخصائص الفنية لتجليد المخطوطات التونسية:

تُظهر المخطوطات التونسية خصوصًا المصاحف مجموعة مميزة من الخصائص الفنية التي تعكس الذوق الفني والتاريخي للمنطقة حيث تتداخل فيها التقاليد الإسلامية مع المؤثرات المحلية التي شكلت هوية التجليد التونسي من أبرز هذه الخصائص استخدام زخارف نباتية وهندسية دقيقة تبرز في الإطارات المحيطة بصفحات المصحف وفي أغلفة المخطوطات مع اعتماد واسع على التكرار والتناظر بما يتوافق مع المبادئ الجمالية الإسلامية وتتميز هذه الزخارف بخطوط ناعمة ومنحنية تعكس تأثير المدرسة الأندلسية إضافة إلى رموز زخرفية محلية مستمدة من التراث التونسي كالأشكال النباتية المجردة والمستوحاة (32) من الطبيعة وأما من حيث الألوان فتستخدم المخطوطات التونسية مجموعة متوازنة من الألوان تشمل الذهبي الأزرق النيلي والأحمر القاني حيث تُستخدم الألوان بشكل متناغم لتعزيز الجمالية دون أن تطغى على النص القرآني مما يحافظ على وضوح القراءة وروحانية المصحف كما تعكس الأغلفة اهتمامًا خاصًا بالتفاصيل الدقيقة في النقوش مع تفضيل لتقنيات النقش اليدوي الذي يضفي عمقًا ملموسًا على التصميم وتبرز أيضًا تقنيات التذهيب في تجليد المخطوطات التونسية كعنصر أساسي حيث لا تقتصر على تزيين الغلاف فقط بل تمتد إلى التذهيب الداخلي للنصوص والعناوين مما يرفع من قيمة المخطوط الفنية والروحية معًا هذا التوازن بين الزخرفة والتقنيات الفنية يظهر التفرد التونسي في الحفاظ على التراث مع التأكيد على الوظيفة الروحية للنص (33)

2.3.4- التقاليد الحرفية والتقنيات المحلية:

تُعد التقاليد الحرفية المحلية في تونس حجر الزاوية في فن تجليد المخطوطات حيث ورث الحرفيون مهارات وتقنيات متخصصة عبر الأجيال مستفيدين من الموارد المحلية ومن التقاليد الإسلامية العريقة استخدمت في التجليد مواد محلية مثل الجلود المدبوغة يدويًا والتي خضعت لعمليات معالجة دقيقة لضمان متانتها ومرونتها مع الحرص على الجودة العالية التي تضمن حماية المخطوط لفترات طويلة ومن التقنيات البارزة التي اتبعها الحرفيون التونسيون النقش اليدوي باستخدام أدوات معدنية دقيقة والذي يسمح بإنشاء زخارف بارزة على الغلاف تعكس الرؤية الجمالية والفنية لكل

حرفي كما تم تطوير تقنيات التذهيب باستخدام معاجين ذهبية مطحونة وأصباغ طبيعية مستخرجة من النباتات مما أعطى المخطوطات (34) رونقًا مميزًا. يضاف إلى ذلك استخدام الخيوط القوية والمقاومة لتجليد أغلفة المخطوطات حيث تراعي تقنيات الربط التقليدية توزيع الضغط بشكل متساوٍ لتجنب تلف الأوراق وقد شهدت هذه التقاليد الحرفية في تونس نوعًا من التجديد والاندماج مع تقنيات حديثة في بعض المناطق مثل استخدام ألوان وأصباغ جديدة مع الحفاظ على النمط التقليدي مما ساهم في استمرار هذا الفن رغم التحديات المعاصرة ويُظهر هذا المزج بين القديم والحديث قدرة الحرفيين التونسيين على المحافظة على تراثهم الفني مع الاستجابة لمتطلبات العصر(35)

5- التحليل المقارن والتأثيرات الثقافية:

1.5 - مقارنة بين النماذج الثلاثة:

1.1.5- أوجه التشابه والاختلاف في التصميم والتقنيات:

تُظهر دراسة مقارنة بين نماذج تجليد المخطوطات القرآنية من المغرب(36) والجزائر وتونس تشابهاً ملحوظاً في التقاليد الفنية التي تعكس جوهر الفن الإسلامي مع اختلافات تتعلق بالتفاصيل التقنية والتصميمية التي تعكس خصوصية كل منطقة ومن حيث التصميم تتفق النماذج الثلاثة على اعتماد الزخارف الهندسية والنباتية التي تتسم بالتكرار والتناظر وفقاً للمبادئ الإسلامية مع استخدام الخط العربي كعنصر زخرفي مركزي وتبرز أيضًا زخارف الخطوط المتداخلة والألوان الذهبية والأزرق النيلي في جميع النماذج مما يعكس حرص الحرفيين على تحقيق توازن بصري وروحي يليق بنصوص المصحف وفي المقابل تختلف التفاصيل التقنية بين النماذج فالمخطوطات المغربية تميل إلى زخارف أكثر بساطة ورصانة مع تركيز على النقش اليدوي والخطوط الواضحة في حين يظهر التجليد الجزائري مزيدًا من التعقيد في الزخارف الهندسية والنباتية ومع اهتمام خاص بالتذهيب واستخدام الألوان القوية أما المخطوطات التونسية(37) فتتميز بتفاصيل زخرفية دقيقة وأسلوب فني يمزج بين الأسلوب التقليدي واللمسات الأندلسية مع تنوع في استخدام المواد والتقنيات كالجلود المدبوغة محليًا وتقنيا يتضح أن كل منطقة طورت طرقًا خاصة في معالجة الجلود والتلوين تعكس معرفة عميقة بالمواد المحلية واحتياجات الحفاظ على المخطوطات مما يؤكد أن اختلافات الأساليب الفنية لا تقلل من وحدة الفن الإسلامي بل تثريه بتعددية تعكس التنوع الثقافي.

2.1.5- أثر الجغرافيا والبيئة على نمط التجليد:

تلعب العوامل الجغرافية والبيئية دورًا حاسمًا في تشكيل أنماط وتجليات فن التجليد في المغرب العربي حيث تؤثر طبيعة المواد المتاحة على المناخ والبيئة الثقافية وخاصة على اختيار التقنيات والزخارف المستخدمة في المغرب يؤثر المناخ الجاف على اختيار الجلود المعالجة حيث يتم تفضيل الجلود السميكة والمعالجة بطرق تقليدية لضمان التحمل بالإضافة إلى وجود تأثيرات من الفن الأندلسي(38) نتيجة القرب الجغرافي والتاريخي مما يظهر في نقوش نباتية متكررة وألوان رصينة تعكس البيئة الصحراوية وفي الجزائر تتنوع البيئات بين المناطق الساحلية والجبلية مما أدى إلى تنوع في المواد المستخدمة في التجليد وتقنيات الحرفيين. المناطق الساحلية على سبيل المثال استفادت من توافر أصباغ طبيعية ونباتات ملونة مما انعكس على تعدد ألوان الزخارف ودقة تفاصيلها في حين تعتمد المناطق الداخلية على تقنيات زخرفية أكثر صرامة وألوان أقل تنوعًا تعكس البيئة الجبلية والمناخ الأكثر برودة ورطوبة..

أما في تونس فتجمع البيئة المتوسطة بين تأثيرات الساحل والصحراء مما أنتج تنوعًا فنيًا متجانسًا يجمع بين الدقة في النقش والتنوع في الألوان مع ميل لاستخدام تقنيات محلية خاصة كالتذهيب اليدوي(39) والمواد النباتية الطبيعية كما أثر التنوع الثقافي في تونس كالتداخل بين الحضارات الإسلامية والأوروبية في ظهور أنماط زخرفية غنية ومركبة وبالتالي يتضح أن الجغرافيا والبيئة ليست فقط عوامل مادية بل هي عناصر مكونة أساسية تؤثر على الشكل الفني وتجعل لكل منطقة بصمتها الخاصة ضمن النسيج الثقافي المتكامل لمنطقة المغرب العربي.

2.5 - دور التفاعل الثقافي بين المغرب الإسلامي والعالم الإسلامي في تطوير فن التجليد:

1.2.5- التداخل بين الأندلس والمغرب:

يُعتبر التداخل الثقافي بين الأندلس والمغرب الإسلامي من العوامل المحورية التي أثرت بعمق على فنون تجليد المخطوطات القرآنية في منطقة المغرب العربي فالأندلس التي كانت مركزًا حضاريًا راقيًا ومتنوعًا ثقافيًا نقلت إلى المغرب العديد من التقنيات والأنماط الزخرفية الفريدة التي تميزت بدقة الخطوط وتفصيل الزخارف النباتية والهندسية إلى جانب استخدام الألوان الزاهية والتذهيب الفني(40) .

كما ساهم الفنانون الأندلسيون الذين هاجروا إلى المغرب بعد سقوط الأندلس في إثراء المشهد الفني حاملين معهم تقنيات جديدة مثل النقش الدقيق على الجلود وتصميمات

متداخلة مستوحاة من فنون العمارة الإسلامية في قرطبة وغرناطة وقد تداخلت الرموز الزخرفية والأشكال الهندسية بين المنطقتين مما أدى إلى تشكيل مدارس فنية متميزة تجمع بين صرامة النمط المغربي وعراقة النمط الأندلسي مع احترام دقيق للنص القرآني وأبعاده الروحية.

2.2.5- التأثيرات العثمانية والعربية على تجليد المصاحف:

امتد تأثير العالم الإسلامي الواسع خاصة الإمبراطورية العثمانية والدوائر الفنية العربية في الشرق الأوسط ليصل إلى المغرب العربي ويترك بصماته الواضحة على فن تجليد المصاحف فقد انتقلت عبر التبادلات التجارية والثقافية تقنيات متطورة في التذهيب والتلوين بالإضافة إلى أنماط زخرفية جديدة مثل استخدام الخط الديواني والفارسي إلى جانب الخطوط التقليدية وكما تبنى الحرفيون المغاربة بعض الأساليب العثمانية في تزيين أغلفة المصاحف مثل التركيز على الزخارف الهندسية المعقدة وأنماط التذهيب المحكم مع تطوير هذه الأساليب بما يتناسب مع الذوق المحلي والمواد المتاحة وفي الوقت ذاته شكلت التأثيرات العربية وخاصة من المشرق الإسلامي وجسرًا ثقافيًا زود المغرب العربي بأفكار فنية جديدة ومن خلال تبادل المخطوطات والتواصل بين العلماء والفنانين وما أضاف غنى وتنوعًا فنيًا لتقاليد تجليد المصاحف.

3.2.5- أثر التبادل الثقافي مع أوروبا

لم يقتصر تأثير التطورات الفنية على التقاليد الإسلامية فقط بل شهد فن تجليد المصاحف في المغرب تفاعلًا متزايدًا مع التراث الأوروبي لا سيما عبر التجارة والاحتكاك الثقافي في العصور الحديثة فقد أدخل الحرفيون المغاربة بعض التقنيات الأوروبية في معالجة الجلود واستخدام الأصباغ بالإضافة إلى تبني بعض الأساليب الزخرفية الغربية التي تم تعديلها لتتماشى مع قواعد الفن الإسلامي وكما أثرت حركة النهضة الفنية الأوروبية خاصة في فنون الطباعة والزخرفة على تطور طرق التجليد اليدوي في المغرب العربي(41) مما أدى إلى تجديد الأساليب التقليدية وابتكار تصاميم أكثر تنوعًا وديناميكية. هذا التفاعل ساعد على تحديث فن التجليد مع الحفاظ على أصالته مما جعله فنًا حيًا قادرًا على التكيف مع التحولات الثقافية العالمية.

6 - دراسة ميدانية في تونس والجزائر :

1 .6 - مقارنة بيئية واجتماعية بين الحرفيين في تونس والجزائر:

يتناول هذا المبحث دراسة ميدانية مقارنة معمقة لبيئات عمل حرفيي تجليد المصاحف في كل من تونس والجزائر مع التركيز على السياقات الاجتماعية والاقتصادية التي

تؤثر على ممارستهم لهذه الحرفة التقليدية تسعى الدراسة إلى فهم الفروق والتشابهات في ظروف العمل والتنظيم الحرفي ومدى تأثير العوامل المحلية على استمرارية هذا الفن التراثي.

أ ـ طبيعة ورش العمل وحجم فرق الحرفيين:

في كلا البلدين تتنوع الورش من صغيرة تديرها أسر أو أفراد معدودين إلى ورش أكبر تضم مجموعات منظمة من الحرفيين وفي تونس تميل الورش إلى أن تكون أصغر حجمًا وأكثر تقليدية حيث يتوارث العمل بين أفراد العائلة الواحدة مع تقسيم مهام واضح حسب التخصص (التجليد، التذهيب، التزيين) أما في الجزائر فبعض الورش تكون أكثر تنوعًا في حجمها مع (42) فرق عمل أكبر وأكثر انفتاحًا على التعاقد مع حرفيين من مناطق مختلفة مما يعطيها طابعًا أكثر تعددية.

ب ـ البنية الاجتماعية والتنظيمية للحرفيين:

تظهر الدراسة أن الهيكل الاجتماعي لحرفيي التجليد في تونس يعتمد بشكل كبير على العلاقات العائلية والوراثية حيث تلعب العائلة دورًا محوريًا في نقل الخبرة والمعرفة إلى جانب النقابات المهنية التي تمارس دورًا تنظيميًا وداعمًا في الجزائر بالإضافة إلى العائلة تلعب النقابات والحركات الثقافية دورًا فعالًا في حماية مهنة التجليد ومع وجود نشاط أكبر في تنظيم دورات تدريبية وورش عمل لتعزيز المهارات.

ت ـ أثر العوامل الاجتماعية والاقتصادية

تواجه الورش في كلا البلدين تحديات مشتركة تتعلق بالوضع الاقتصادي من ضعف الدعم الحكومي إلى محدودية السوق التقليدي ما يؤدي إلى تراجع عدد المتخصصين في هذا المجال ومع ذلك تُلاحظ في تونس قوة التماسك المجتمعي حول هذه الحرفة إذ تحظى بتقدير محلي يعزز استمرارها رغم وفي الجزائر يُلاحظ انخراط متزايد في مبادرات ثقافية حكومية وغير حكومية تدعم الحرف اليدوية رغم وجود تحديات اقتصادية مماثلة. (43)

6 . 2 ـ الاختلافات والتشابهات في الطقوس وأساليب التجليد في تونس والجزائر:

يركز هذا المبحث على دراسة مقارنة بين الطقوس المرتبطة بعملية تجليد المصحف وأساليب العمل الفنية التي يتبعها الحرفيون في كل من تونس والجزائر بهدف إبراز نقاط الالتقاء والاختلاف التي تنبع من الخلفيات الثقافية والاجتماعية لكل منطقة.

أ ـ الطقوس الاجتماعية والروحية المصاحبة لعملية التجليد:

في كلتا البيئتين تحظى عملية تجليد المصحف بمكانة خاصة تتجاوز كونها مجرد عمل حرفي تقني إلى طقس اجتماعي وروحي وفي تونس تُمارس طقوس معينة مثل قراءة الأدعية والابتهالات قبل بدء العمل وبعد الانتهاء منه تعبيرًا عن الاحترام للمقدس وتعزيز الشعور بالتقديس في كل مرحلة من مراحل التجليد وفي الجزائر تُضاف إلى ذلك مراسم تجمع الحرفيين حول المصحف قبل العمل تتخللها تبادلات شفهية حول أهمية الحرفة مما يرسخ الروح الجماعية والتواصل بين الأجيال (44) .

ب ـ استخدام المواد وأدوات العمل:

تتشابه الورش في البلدين في استخدام الجلود التقليدية والألوان الطبيعية والمعاجين الذهبية مع بعض الفوارق التي تعكس التنوع الجغرافي ففي تونس يفضل الحرفيون استخدام جلود الماعز المحلية لما تتمتع به من نعومة وجودة بينما في الجزائر تنتشر أنواع متعددة من الجلود تبعًا للمناطق ويستخدم الحرفيون أدوات يدوية تقليدية محفوظة عبر الأجيال تعكس هذه الفروق تأثر كل منطقة بمواردها البيئية الخاصة وكذلك خبرتها التاريخية في مجال التجليد.

ت ـ أنماط الزخرفة وأساليب التذهيب:

تُظهر الزخارف والأساليب التزويقية في تجليد المصاحف بتونس والجزائر ثراءً بصريًا يعكس تداخل العوامل الثقافية والجغرافية والتاريخية التي أثّرت في مسار هذا الفن عبر العصور ففي تونس تتسم الزخارف بطابع نباتي هندسي بالغ الدقة ويقوم على التكرار والتناظر بما يمنح العمل تماسكًا بنيويًا يشي بروح الانضباط والصرامة الجمالية التي عُرفت بها المدرسة التونسية في فنون الكتاب ويُلاحظ حضور لافت للألوان الدافئة كالذهبي والبرتقالي والتي لا تُستخدم بوصفها عناصر تزيينية فحسب بل كرموز بصرية تعبّر عن النور والقداسة والدفء الروحي فتُضفي على المصحف هيبة وجلالًا يتجاوز البعد المادي للعمل الحرفي(45) ويعكس هذا التوجه التونسي حرص الحرفيين على تحقيق توازن بين الوظيفة الجمالية والرمزية بما يرسّخ مكانة المصحف كقطعة فنية مقدسة تحفظ النص القرآني في أبهى صورة وأما في الجزائر فإن المشهد التزويقي يبدو أكثر تنوعًا من حيث الأساليب والتأثيرات إذ تميل الزخارف إلى الجمع بين العناصر الهندسية والأنماط الخطية وهو ما يُبرز تأثرها الواضح بالتراث الأندلسي الذي انتقل مع الهجرات الثقافية والعلمية إلى بلاد المغرب الأوسط ويُلاحظ أن التذهيب في المخطوطات الجزائرية يحظى بمكانة مركزية حيث يستخدم

بكثافة أكبر مقارنة بنظيره التونسي خاصة في تزيين الإطارات المحيطة بالصفحات والعناوين الداخلية بما يمنح العمل ثراءً بصريًا ولمعانًا يوحي بالفخامة والاحتفاء بالمقدس كما أن هذه الأساليب تترجم رؤية جمالية ترى في المصحف ليس مجرد وعاء نصي ؛ بل أثرًا فنيًا متكاملًا يُعبّر عن هوية حضارية جامعة.

وتُبرز المقارنة بين البلدين أن زخارف التجليد التونسية تميل إلى البساطة المنظمة ذات الطابع الهندسي والنباتي المتناغم بينما تتجه الزخارف الجزائرية نحو التنوع والكثافة في التذهيب والنقش ما يعكس اختلاف الخلفيات الثقافية فالتوجه التونسي يرتبط بموروث إفريقي-مغربي يقدّس الهندسة والتناظر في حين أن التوجه الجزائري يتغذى من الإرث الأندلسي الذي يثمن التداخل بين الخط والزخرفة وهكذا فإن هذه الاختلافات لا تعكس فقط تنوع المدارس الفنية في العالم الإسلامي بل تكشف أيضًا عن قدرة كل بيئة على توظيف مواردها ورموزها الجمالية الخاصة لخدمة النص القرآني وإحاطته بهالة من القداسة والجمال البصري(46)

ث - انتقال الخبرات والتقنيات بين الأجيال:

يُلاحظ في كلتا البيئتين اعتماد كبير على الطريقة الشفوية والتدريب العملي المباشر في نقل المهارات مع تقليدية قوية في استمرارية هذه الأساليب وفي تونس يتم التركيز على الوراثة الأسرية كوسيلة رئيسية لتعليم الحرف (47) وبينما في الجزائر تظهر حركات حديثة تسعى إلى توثيق المهارات من خلال دورات وورش تدريبية منظمة ما يعكس تقبلاً نسبيًا للتحديث في الأساليب التعليمية (48)

ح - تقبل التحديثات التقنية وتأثيرها على الحرفة:

رغم التمسك بالقيم التقليدية يختلف الحرفيون في مدى تقبلهم للتقنيات الحديثة ففي تونس يُلاحظ تحفظ أكبر تجاه إدخال الآلات أو المواد الصناعية حفاظًا على الطابع الأصيل للحرفة بينما في الجزائر هناك ميل متزايد لاستخدام بعض الأدوات الحديثة التي تسهل العمل دون المساس بالجودة الفنية ما يشير إلى توازن بين المحافظة على التراث والانفتاح على الحداثة

- جدول الاختلافات والتشابهات في الطقوس وأساليب التجليد في تونس والجزائر:

المحور	الجزائر	تونس
طبيعة الورش وحجم الفرق	ورش متنوعة الحجم، فرق عمل أكبر وأكثر انفتاحًا على التعاون مع حرفيين من مناطق مختلفة.	ورش صغيرة غالبًا ذات طابع عائلي تقليدي، مهام مقسّمة (تجليد، تذهيب، تزيين)
البنية الاجتماعية والتنظيمية	مزيج من الوراثة العائلية والدعم النقابي؛ الحركات الثقافية نشطة وتقدّم ورش تدريبية ودورات تكوين.	اعتماد كبير على الوراثة العائلية؛ النقابات المهنية موجودة وتدعم الحرفة.
العوامل الاجتماعية والاقتصادية	مبادرات حكومية وغير حكومية تدعم الحرف اليدوية، لكن التحديات الاقتصادية ما تزال قائمة (49)	تقدير مجتمعي قوي للحرفة يعزز استمراريتها رغم ضعف الدعم الاقتصادي.
الطقوس الاجتماعية والروحية	تجمع الحرفيين حول المصحف مع تبادل شفهي لقيم الحرفة، يعكس روحًا جماعية أكبر.	أدعية وابتهالات قبل وبعد العمل تعبيرًا عن التقديس.
المواد وأدوات العمل	تنوع الجلود حسب المناطق، أدوات تقليدية متنوعة تعكس الموارد الجغرافية.	اعتماد على جلود الماعز المحلية الناعمة، أدوات يدوية تقليدية.
الزخرفة والتذهيب	زخارف هندسية وخطية متأثرة بالفن الأندلسي، كثافة أكبر في التذهيب خاصة في الإطارات (51)	زخارف نباتية هندسية دقيقة، ألوان دافئة (ذهبي، برتقالي) (50)
انتقال الخبرات والتقنيات	توثيق وتدريب منظم عبر ورش حديثة ودورات، مع استمرار الوراثة التقليدية.	وراثة أسرية تقليدية، اعتماد كبير على التدريب الشفوي المباشر.
تقبل التحديثات التقنية	انفتاح نسبي على الأدوات الحديثة التي تسهّل العمل دون الإضرار بالجودة.	تحفظ واضح تجاه إدخال الآلات والمواد الصناعية حفاظًا على الأصالة.

إنّ المقارنة بين حرفيي تجليد المصاحف في تونس والجزائر مجموعة من أوجه التشابه والاختلاف التي تعكس الخصوصيات البيئية والاجتماعية والثقافية في كلا البلدين ؛ إذ تميل الورش التونسية إلى أن تكون أصغر حجمًا وأكثر تقليدية ذات طابع عائلي حيث يُقسَّم العمل بين أفراد الأسرة على أساس التخصص في التجليد والتذهيب والزخرفة بينما تتسم الورش الجزائرية بتنوع أكبر في الحجم وبطابع أكثر انفتاحًا على استقطاب حرفيين من مناطق مختلفة وعلى الصعيد الاجتماعي والتنظيمي يظل للعائلة في تونس دور مركزي في توريث المهنة إلى جانب النقابات التي تؤدي وظائف دعم وتنظيم في حين تضاف في الجزائر أدوار الحركات الثقافية والنقابات في حماية الحرفة وتنظيم دورات تكوينية. أما من الناحية الاقتصادية والاجتماعية فيواجه الحرفيون في البلدين تحديات مشتركة تتصل بضعف الدعم الرسمي ومحدودية السوق

التقليدية غير أن الحرفة في تونس تستفيد من تقدير اجتماعي محلي يعزز استمرارها في مقابل مبادرات حكومية وغير حكومية في الجزائر تسعى إلى دعمها رغم الصعوبات الاقتصادية وعلى مستوى الطقوس تُمارس في تونس أدعية وابتهالات ترافق العمل باعتباره فعلًا مقدسًا بينما في الجزائر يُضاف إلى ذلك بعد جماعي يتمثل في تجمع الحرفيين وتبادلهم الشفهي لقيم الحرفة. وتتجلى الفوارق أيضًا في المواد والزخارف حيث يفضّل التونسيون استخدام جلود الماعز المحلية وألوان دافئة وزخارف نباتية هندسية دقيقة في حين يميل الجزائريون إلى تنوع الجلود والأنماط الزخرفية المتأثرة بالفن الأندلسي مع كثافة في التذهيب وفي ما يخص نقل الخبرة يعتمد التونسيون على الوراثة الأسرية التقليدية بينما يسعى الجزائريون إلى التوفيق بين التعليم الشفوي والدورات المنظمة وأخيرًا يظهر في تونس تحفظ تجاه إدخال الآلات والمواد الصناعية حفاظًا على أصالة الحرفة في حين يسود في الجزائر انفتاح نسبي على بعض الأدوات الحديثة بما يتيح التوازن بين المحافظة على التراث والاستفادة من تقنيات التيسير.

خلاصة الخصائص الفنية والتقنية لتجليد المصاحف في المغرب العربي:

أظهرت الدراسة أن فن تجليد المصاحف في منطقة المغرب العربي يمتلك شخصية فنية متميزة تمثل خلاصة لتفاعل طويل بين التقاليد المحلية والتأثيرات الوافدة من محيطها الحضاري الإسلامي بل وحتى من الثقافات الأوروبية وقد توصل البحث إلى أن هذا الفن لا يُعد مجرد غلاف وقائي للمخطوط بل هو في جوهره تعبير بصري وجمالي عن قدسية النص القرآني ومكانته في الوعي الإسلامي وتبيّن أن الخصائص الفنية لتجليد المصاحف المغربية والجزائرية(52) والتونسية تتقاطع في كثير من السمات أبرزها استخدام الزخارف الهندسية المتناظرة والتكوينات النباتية المجردة بالإضافة إلى توظيف الخط العربي كعنصر زخرفي مستقل وكذلك يشترك الفنانون في استخدام الألوان الرمزية كالذهبي والأزرق الداكن والأحمر القاني وهي ألوان لها دلالات روحية وجمالية تتجاوز الزينة إلى التعبير عن المهابة والجلال المرتبطين بالمصحف الشريف وأما من الناحية التقنية فقد أكدت الدراسة تنوعًا لافتًا في المواد المستخدمة مثل أنواع الجلود المحلية (كجلد الماعز والبقر) والألوان الطبيعية وأوراق الذهب ما يدل على مهارة الحرفيين وتنوع المدارس الحرفية وتم تسجيل استخدام لأساليب تقليدية دقيقة في الضغط والنقش والتذهيب لا سيما في المغرب الأقصى حيث لا يزال العديد من الورش الحرفية تحافظ على هذه التقنيات حتى اليوم وكما برز تأثير

العوامل الجغرافية والثقافية في تشكيل خصوصيات كل منطقة فبينما تميزت المصاحف المغربية بالبساطة المنظمة وصرامة التصميم فإن التجليد الجزائري مال إلى الزخرفة الأكثر تعقيدًا وتنوعًا لونيًا في حين أظهرت النماذج التونسية(53) توازنًا بين الدقة الفنية والانفتاح على التأثيرات الأندلسية والأوروبية.

إسهامات الدراسة في فهم فن تجليد المخطوطات الإسلامية

ساهمت هذه الدراسة في تسليط الضوء على جانب فني وثقافي مهم من التراث الإسلامي ظل في كثير من الأحيان حبيس دوائر التقدير البصري دون تحليل أكاديمي منهجي فمن خلال التتبع التاريخي والتحليل الفني للنماذج المختارة بيّنت الدراسة أن فن التجليد ليس فقط حرفة يدوية بل منظومة متكاملة ذات دلالات دينية رمزية وجمالية وقد أظهرت الدراسة كيف أن التجليد في المغرب العربي كان نتاجًا لتراكمات معرفية وممارسات حرفية تطورت عبر قرون متأثرة بالسياق الاجتماعي والديني والسياسي لكل فترة وكما بيّنت أن التجليد الإسلامي بخلاف نظيره في بعض الثقافات الأخرى يرتبط مباشرة بالقرآن الكريم ما يضفي عليه أبعادًا من القداسة والمسؤولية وينعكس ذلك في حرص الفنان على التكامل بين الجمال والوظيفة ومن الإسهامات الجوهرية للدراسة أنها أوضحت حجم التفاعل الثقافي بين المغرب الإسلامي وبقية أقاليم العالم الإسلامي سواء من خلال التأثير الأندلسي والعثماني وعبر التبادلات الفنية مع المشرق كما نبهت إلى الأهمية البالغة لهذا الفن في فهم تطور الذائقة البصرية الإسلامية وأكدت على ضرورة إدماجه في مشاريع الحفاظ على التراث والدراسات المعاصرة المتعلقة بالفنون الإسلامية وأخيرًا أكدت الدراسة على القيمة التوثيقية للمخطوطات المجلدة حيث لا يقتصر دورها على حفظ النص بل أيضًا على حفظ أساليب وتقنيات وخطوط وزخارف تمثل ذاكرة بصرية وجمالية لحضارة بأكملها.

الخاتمـــــــة:

يمثّـــل فــن تجليد المخطوط القرآني في بلاد المغرب الإسلامي أحد أبرز وجوه التعبير الفني والروحي في الحضارة الإسلامية إذ يجمع بين البعد الجمالي والديني ويعكس في ذات الوقت خصوصيات ثقافية محلية متجذرة في عمق التاريخ ومن خلال هذه الدراسة التي سعت إلى تحليل الخصائص الفنية والتقنية لهذا الفن ضمن أبعاده الجغرافية والزمنية أمكن الكشف عن غنى هذا التراث وتعدد مظاهره وتنوع مدارسه التي أسهمت في تشكيل هويته المتفردة داخل الفضاء الإسلامي الأوسع.

لقد بيّـن البحث أن تجليد المصاحف لم يكن مجرد عملية وظيفية لحماية المخطوط؛ بل ممارسة فنية رفيعة تعكس فهمًا معمقًا لعلاقة الشكل بالمضمون ولقدسية النص القرآني كما أبرزت الدراسة أن بلاد المغرب الإسلامي بما فيها من مراكز ثقافية وعلمية كفاس والقيروان وتلمسان طورت تقاليد حرفية متميزة في مجال تجليد المصاحف القرآنية استندت إلى تقنيات محلية واستوعبت في الوقت ذاته تأثيرات وافدة من الأندلس والمشرق والعثمانيين لتنتج أعمالًا زخرفية ذات طابع خاص ومتكامل.

على المستوى التقني تبيّن أن الحرفيين المغاربة اعتمدوا على خامات طبيعية عالية الجودة كالجلود المدبوغة محليًا والصباغات النباتية والمعدنية وتقنيات التذهيب اليدوي والنقش بالضغط أما على المستوى الزخرفي فقد استثمروا الزخارف الهندسية والنباتية والخطية توظيفًا مدروسًا يراعي التوازن بين الزينة وحرمة النص ويعكس فلسفة الفن الإسلامي القائمة على التجريد والتناغم البصري.

وفي المقارنة بين النماذج المغربية والجزائرية والتونسية كشفت الدراسة عن قدر من التفاوت في الأساليب والرموز يتصل بالسياق الثقافي والتاريخي لكل منطقة لكنه تفاوت لا يُلغي وحدة المنطلقات الجمالية والدينية التي تحكم هذا الفن كما تبين أن هذه المصاحف المجَلَّدة لم تكن مجرد منتجات فنية بل رموزًا للهوية الدينية ووعاءً للعلم والمعرفة وعنوانًا للرقي الحضاري.

إن هذه الرسالة لا تدّعي أنها استوفت جميع جوانب موضوع التجليد في المغرب الإسلامي ولكنها فتحت أفقًا بحثيًا واسعًا يمكن البناء عليه وقد خلصت إلى ضرورة الاهتمام العلمي والعملي بهذا التراث الفني من خلال التوثيق والصيانة وإعادة الإدماج الثقافي المعاصر وذلك حفاظًا على ما تبقى من كنوز مادية وروحية تجسد عمق الحضارة الإسلامية وثراءها.

وفي ضوء هذه المعطيات فإننا نأمل أن تسهم هذه الدراسة في إحياء الوعي بأهمية فن تجليد المصاحف وتشجيع مزيد من الأبحاث المتخصصة التي تعالج قضايا فنية وفكرية متصلة به سواء في بعده الجمالي أو في علاقته بالخط العربي أو في تفاعله مع باقي الفنون الإسلامية بما يسهم في تعميق الفهم العلمي لهذا التراث الغني وإعادة إدراجه في سياق الدراسات المعاصرة للفن والحضارة الإسلامية.

بيان تضارب المصالح

يُقر المؤلف بعدم وجود أي تضارب مالي أو علاقات شخصية معروفة قد تؤثر على العمل المذكور في هذه الورقة.

الهوامـــــــــــــش:

[1]- أحمد شوقي بنبين.(2008) .الكوديكولوجيا: علم المخطوطات .الرباط: دار الأمان. ص.19-21.

[2]- محمد محمود العبادي. (1997) .الكتاب العربي المخطوط: نشأته وتطوره .القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. ص95-110.

[3] عبد المجيد زلوم، (2013) التراث الفني المغربي في المخطوطات، الرباط: دار النشر المغربية. ص96 .

[4]- أحمد شوقي بنبين. (2012) ،المخطوطات الإسلامية في المغرب: صناعة، زخرفة، تداول . الرباط: دار الأمان.ص236.

[5]- أحمد شوقي بنبين. (2008) .الكوديكولوجيا: علم المخطوطات .الرباط: دار الأمان. ص111-118.

[6]-محمد محمود العبادي. (1997) .الكتاب العربي المخطوط: نشأته وتطوره .القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.ص25-28.

[7] -عبد المجيد زلوم، (2013) التراث الفني المغربي في المخطوطات، الرباط: دار النشر المغربية. ص55-59.

[8] -أحمد شوقي بنبين. (1997)، الخط المغربي والمصاحف السلطانية .حوليات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط.ص.15-30.

[9] -خالد عيساوي ، نقل المعرفة الحرفية في المغرب: دراسة ميدانية على ورش تجليد المصاحف . التراث الثقافي، ، 2018، العدد 12، ص. 45-68.

[10] -الابيض جمال، (2019) تأثير التبادل الثقافي على فن تجليد المصاحف في الجزائر .مجلة الفنون الإسلامية، 2019، العدد 15، ص. 33-59.

[11] -أحمد شوقي بنبين. (2012) ،المخطوطات الإسلامية في المغرب: صناعة، زخرفة، تداول . الرباط: دار الأمان. ص65-69.

[12] -محمد محمود العبادي. (1997) .الكتاب العربي المخطوط: نشأته وتطوره .القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. ص88.

[13]-عبد اللطيف مزوز، المخطوط المغربي: تاريخ وحفظ وترميم – دراسة ميدانية وتحليلية . 2015 ،الرباط: دار النشر المغربية.ص69-73.

[14]- أحمد شوقي بنبين. (1997)، الخط المغربي والمصاحف السلطانية .حوليات معهد الدراسات الإفريقية، ألرباط ص.56-57.

[15]-محمد محمود العبادي. (1997) .الكتاب العربي المخطوط: نشأته وتطوره .القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. ص.49-66.

[16]- مولاي عبدالسلام، مجلة الأنثروبولوجيا. (2001) الحرف التقليدية والهوية الثقافية في المغرب العربي .مجلة الأنثروبولوجيا، العدد 21، ص. 15-42.

[17]- خالد عيساوي ، نقل المعرفة الحرفية في المغرب: دراسة ميدانية على ورش تجليد المصاحف . التراث الثقافي، ، 2018، العدد 12، ص. 45-68.
[18]- محمد عبد الله عنان،(1998) فنون الكتاب في الإسلام ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص.199-203.
[19] -الابيض جمال، (2019) تأثير التبادل الثقافي على فن تجليد المصاحف في الجزائر .مجلة الفنون الإسلامية، 2019، العدد 15، ص. 33-59.
[20]-أحمد شوقي بنبين. (2008) .الكوديكولوجيا: علم المخطوطات .الرباط: دار الأمان. ض198.
[21]- أحمد شوقي بنبين. (1997)، الخط المغربي والمصاحف السلطانية .حوليات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط. ص.95-110.
[22] -خالد عيساوي ، نقل المعرفة الحرفية في المغرب: دراسة ميدانية على ورش تجليد المصاحف . التراث الثقافي، ، 2018، العدد 12، ص. 45-68.
[23] -محمد بن علي. (2020). الطقوس الاجتماعية المرتبطة بتجليد المصحف في تونس .مجلة الدراسات الإسلامية، العدد 28، ص. 55-78.
[24]- عبد المجيد زلوم، (2013) التراث الفني المغربي في المخطوطات، الرباط: دار النشر المغربية. ص19-31.
[25] -عبد اللطيف مزوز، (2015)، المخطوط المغربي: تاريخ وحفظ وترميم – دراسة ميدانية وتحليلية . ،الرباط: دار النشر المغربية.ص11-19.
[26]- أحمد شوقي بنبين. (2012) ،المخطوطات الإسلامية في المغرب: صناعة، زخرفة، تداول . الرباط: دار الأمان. ص91.
[27]- أحمد شوقي بنبين. (2012) ،المخطوطات الإسلامية في المغرب: صناعة، زخرفة، تداول . الرباط: دار الأمان. ص75 -77.
[28]- عبد اللطيف مزوز، المخطوط المغربي: تاريخ وحفظ وترميم – دراسة ميدانية وتحليلية . 2015 ،الرباط: دار النشر المغربية. ص95
[29]-محمد عبد الله عنان،(1998) فنون الكتاب في الإسلام ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص.188-193.
[30] - زهير قاسمي. (2018) .المصاحف المخطوطة في المغرب الإسلامي: دراسة فنية وتاريخية ،جامعة تلمسان، الجزائر. ص121-127.
[31]-عبد اللطيف مزوز، المخطوط المغربي: تاريخ وحفظ وترميم – دراسة ميدانية وتحليلية . 2015 ،الرباط: دار النشر المغربية.ص73-75.
[32]-مولاي عبدالسلام، مجلة الأنثروبولوجيا. (2001) الحرف التقليدية والهوية الثقافية في المغرب العربي .مجلة الأنثروبولوجيا، العدد 21، ص. 15-42.
[33]-محمد بن علي. (2020). الطقوس الاجتماعية المرتبطة بتجليد المصحف في تونس .مجلة الدراسات الإسلامية، العدد 28، ص. 55-78.
[34]- أحمد شوقي بنبين. (2012) ،المخطوطات الإسلامية في المغرب: صناعة، زخرفة، تداول . الرباط: دار الأمان. ص43-49.
[35] -عبد اللطيف مزوز، المخطوط المغربي: تاريخ وحفظ وترميم – دراسة ميدانية وتحليلية . 2015 ،الرباط: دار النشر المغربية.ص186.

[36]- عبد المجيد زلوم، (2013) التراث الفني المغربي في المخطوطات، الرباط: دار النشر المغربية. ص48-55.

[37]محمد بن علي. (2020). الطقوس الاجتماعية المرتبطة بتجليد المصحف في تونس .مجلة الدراسات الإسلامية، العدد 28، ص. 55-78.

[38] -الابيض جمال، (2019) تأثير التبادل الثقافي على فن تجليد المصاحف في الجزائر .مجلة الفنون الإسلامية، 2019، العدد 15، ص. 98.

[39] أحمد شوقي بنبين. (2012)، المخطوطات الإسلامية في المغرب: صناعة، زخرفة، تداول . الرباط: دار الأمان. ص19-22.

[40]- عبد المجيد زلوم، (2013) التراث الفني المغربي في المخطوطات، الرباط: دار النشر المغربية. ص98 .

[41]- عبد المجيد زلوم، (2013) التراث الفني المغربي في المخطوطات، الرباط: دار النشر المغربية. ص88-91.

[42]- محمد عبد الله عنان،(1998) فنون الكتاب في الإسلام ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص.177.

[43]- الابيض جمال، (2019) تأثير التبادل الثقافي على فن تجليد المصاحف في الجزائر .مجلة الفنون الإسلامية، 2019، العدد 15، ص. 18-21.

[44] -محمد بن علي. (2020). الطقوس الاجتماعية المرتبطة بتجليد المصحف في تونس .مجلة الدراسات الإسلامية، العدد 28، ص. 55-78.

[45] زهير قاسمي. (2018) .المصاحف المخطوطة في المغرب الإسلامي: دراسة فنية وتاريخية ،جامعة تلمسان، الجزائر. ص155.

[46] محمد بن علي. (2020). الطقوس الاجتماعية المرتبطة بتجليد المصحف في تونس .مجلة الدراسات الإسلامية، العدد 28، ص. 55-78.

[47] خالد عيساوي ، نقل المعرفة الحرفية في المغرب: دراسة ميدانية على ورش تجليد المصاحف . التراث الثقافي، ، 2018، العدد 12، ص. 45-68.

[48] محمد عبد الله عنان،(1998) فنون الكتاب في الإسلام ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص.158.

[49] زهير قاسمي. (2018) .المصاحف المخطوطة في المغرب الإسلامي: دراسة فنية وتاريخية ،جامعة تلمسان، الجزائر. ص98-110.

[50] محمد بن علي. (2020). الطقوس الاجتماعية المرتبطة بتجليد المصحف في تونس .مجلة الدراسات الإسلامية، العدد 28، ص. 55-78.

[51] أحمد شوقي بنبين. (2012) ،المخطوطات الإسلامية في المغرب: صناعة، زخرفة، تداول . الرباط: دار الأمان. ص.29.

[52] زهير قاسمي. (2018) .المصاحف المخطوطة في المغرب الإسلامي: دراسة فنية وتاريخية ،جامعة تلمسان، الجزائر. ص.15-23.

[53] محمد بن علي. (2020). الطقوس الاجتماعية المرتبطة بتجليد المصحف في تونس .مجلة الدراسات الإسلامية، العدد 28، ص. 55-78.